كوسوڤو على طريق البوسنة

القمع الوحشي الصربي وأوروبا الحديثة!(*)

ما يزال مسلسل المذابح والإبادة الجماعية للشعب الألباني في إقليم كوسوڤو يجري بصمت وإصرار وعلى أوسع نطاق كما تفيد الأخبار القليلة التي تصل إلى أجهزة الإعلام. فقد أفادت المعلومات التي نشرت الأحد في ٧ حزيران – يونيو «أن عمليات القوات الصربية خلال أسبوع أسفرت في بلدية ديتشاني وحدها عن قتل ٥٢ ألبانياً وفقد ٢٠٠ آخرين. كما احتجزت السلطات الصربية ١٥٠ شخصاً. وقدر عدد الذين اضطروا إلى ترك منازلهم بأكثر من ٣٠ ألف ألباني. فيما دمّر مالا يقل عن عشر قرى كلياً أو جزئياً» ونقلت صحيفة «ناشا بوربا» المستقلة الصادرة يوم السبت في ٦ يونيو في بلغراد عن مصادر خاصة معلومات عن وجود مقبرة جماعية قرب ديتشاني تحتوي على جثث ٣٠٠ مواطن ألباني خطفتهم القوات الصربية وقتلتهم. راجع جريدة الحياة العدد رقم ١٢٨٧٨ تاريخ ٧ حزيران.

ونشرت صحيفة «كوخا ديتورا» الصادرة في بريشتينا عاصمة كوسوڤو بتاريخ ١٦ حزيران «يونيو» رسالة موقعة من امرأة تدعى شبريسا (ويعني أمل) عمرها ٤٣عاماً من قرية

(*) ١٩٩٨/٦/٢٤.

بونوشيتس في بلدية جاكوفيستا جاء فيها «قتل الصرب زوجي واغتصبو ابنتي البالغتين من العمر ١٣و ١٤عاماً، ولم يبق أمامي سوى شراء بندقية لمحاربة المجرمين» جريدة الحياة ١٧يونيو.

وقد يُعيي القارئ تتبع هذه الجرائم والفواجع.. ولكن لا يصعب تقدير حجمها في ضوء مجازر البوسنة والمقابر الجماعية التي ما تزال تكتشف حتى الآن! وفي ضوء الآلية العسكرية الضخمة وأعداد الجنود والشرطة من الصرب الذين ما يزال يدفع بهم ميلوسيفتش إلى كوسوفو.. بل إن طريقة هؤلاء في التوزيع تدل على حرب الإبادة والتهجير وما يسمى التطهير العرقي والديني.. الذي ينتويه الصرب حتى في ظل تدخل حلف الناتو إن حصل ذلك !! إن هذا التدخل إن اقتصر فقط على القصف الجوي والصاروخي على المواقع المنتقاة، قد لايطال الوجود العسكري الصربي المنتشر بكثافة على شكل وحدات صغيرة للدبابات والمدفعية وقواعد الصواريخ والموزعة ـ كما يقول بعض المعلقين ـ «في أماكن محصنة بين الغابات والمرتفعات والمناطق السكنية».

ولكن هل صحيح أن حلف شمال الأطلسي ينوي أن يتدخل؟ إن المتتبع لتصريحات الزعماء السياسيين والعسكريين الأوروبيين والأمريكيين يلاحظ مدى التراجع أو العد التنازلي في اللهجة والحماسة. فضلاً عن الموقف الروسي المعهود الذي يماثل في تبنّيه لجميع مواقف الصرب تبني الولايات المتحدة

لمواقف إسرائيل. وقد ذكر دبلوماسيون أن روسيا جمدت يوم الثلاثاء ٩ حزيران مشروع قرار في الأمم المتحدة يجيز لحلف شمال الأطلسي استخدام القوة في كوسوڤو (راجع جريدة القدس العربي. الخميس ١١ يونيو العدد ٢٨٢٥).

وكان الرئيس الأمريكي كلينتون أعلن في نفس اليوم أنه أعطى موافقته على تسريع الاستعدادات العسكرية لاحتمال تدخل حلف شمال الأطلسي في إقليم كوسوڤو وقال في نهاية مؤتمر صحفي مشترك مع رئيس كوريا الجنوبية «أنا مصمم على القيام بكل ما في وسعي للحؤول دون تكرار حصول مذبحة إنسانية والتطهير العرقي كالذي حصل في البوسنة».

كما أن وزير دفاعه وليام كوهين قال كذلك في اليوم ذاته: «إن هناك شعوراً بالإلحاح بين أعضاء حلف الأطلسي لوقف المذبحة التي تشهدها كوسوڤو» لكنه حذر في الوقت نفسه من الانحياز إلى الثوار المنحدرين من أصل ألباني الذين يطالبون بالاستقلال. وقال لصحافيين رافقوه في رحلته من واشنطن إلى روما: «هذه المذبحة وقصف القرى شيء لايمكن التغاضي عنه بعد الآن».

وبعد بضعة أيام حذرت واشنطن جيش تحرير كوسوڤو من شن هجمات جديدة على القوات الصربية بذريعة «أن ذلك يعطي المبررات للسلطات الصربية بمواصلة العنف في الإقليم»

كما أن الأمين العام لحلف شمال الأطلسي خافيير سولانا اعلن أن الحلف سيعمل على إيجاد تسوية سلمية للأزمة في كوسوفو وبالتعاون مع روسيا، والطلب من الرئيس ميلوسيفتش تنفيذ التزاماته خلال زيارته الأخيرة لموسكو، في الوقت أو في اليوم الذي نقلت صحيفة «ناشابوربا» المستقلة المشار إليها عن مصادر في موسكو أن «وزارة الدفاع الروسية زوّدت الجانب اليوغوسلافي (أو الصربي) بمعلومات مفصلة حول جيش تحرير كوسوفو وتحركات قوات حلف شمال الأطلسي في المنطقة» وأشارت الصحيفة إلى أن هذه المعلومات تضمنت «مواقع وتشكيلات وأسلحة جيش تحرير كوسوفو ونشاطات حلف شمال الأطلسي وخطط عملياته العسكرية المحتملة في الإقليم». جريدة الحياة ٢٠ حزيران العدد ١٢٨٩١.

أما التزامات «الرئيس ميلوسيفتش» المشار إليها، والتي يطالبه حلف الأطلسي بتنفيذها كحل لهذه المشكلة فهي التي تفضح هذه المواقف، لأنها لم تزد عن تعهده ببدء مفاوضات مع ألبان كوسوفو حول «الحكم الذاتي وفقاً للمعايير الدولية» !! مع الإشارة إلى «تقليص انتشار قوات الأمن اليوغوسلافية خارج نطاق مرابطتها الدائمة»!! في الوقت الذي شدد فيه هذا الاتفاق الذي وقع عليه كل من بوريس يلسن وميلوسيفتش على «احترام سيادة يوغوسلافيا ووحدة أراضيها» ودان كل أشكال «الإرهاب والانفصال» راجع صحف الأربعاء ١٧

يونيو.

لا جديد إذن في موقف الغرب المتخاذل أو المخادع أو موقف الولايات المتحدة وأوروبا. ولكن الذي حملنا على العودة إلى الكتابة في هذه المسألة هو ما جاء في بيان القمة الأوروبية التي انعقدت في بريطانيا، فقد «دانت هذه القمة استخدام الصرب القمع العسكري الوحشي بحق ألبان كوسوڤو» ورأت أن هذا القمع «لا مكان له داخل أوروبا الحديثة» و حمّلت هذه القمة في ختام أعمالها يوم الثلاثاء في ١٦ حزيران «يونيو» في كارديف الرئيس سلوبودان ميلوسيفتش مسؤولية ما يحصل... إلخ.

ونسأل هنا: هل صحيح أن القمع الصربي القائم على أبشع صور القتل والتشريد والاغتصاب وقصف القرى والمدن بالمدفعية الثقيلة... لم يعد له وجود أو لا مكان له داخل أوروبا الحديثة؟ أم إن هذا إنشاء وكلام مزوّق فارغ من أي مضمون، مثل شعارات الحضارة والمدنية والحداثة وحقوق الإنسان؟

أوروبا القديمة أو القديمة/ الحديثة هي المسؤولة عن مأساة كوسوڤو، أو هي التي أوجدت هذه المشكلة في عام ١٩١٣ بعد أن نالت ألبانيا استقلالها في أعقاب حرب البلقان ١٩١٢-١٩١٣. فمؤتمر لندن الذي عقد في هذا العام والذي حضرته الدول العظمى - على المعهود حتى الآن - هي التي قررت سلخ إقليم كوسوڤو عن ألبانيا وألحقته بصربيا، وذلك

تنفيذاً لتفاهم قديم حول اقتسام ألبانيا؛ ففي عام ١٨٦١ توصلت اليونان وجمهورية الصرب إلى تفاهم وصفه بعض المؤرخين بأنه تفاهم سري لاقتسام ألبانيا، ويقول: إن الألبان اليوم يستشعرون أن ذلك التفاهم ما زال قائماً بين جارتيهم.

وقد نجد في تاريخ ألبانيا تفسيراً لهذا، كما نجد تفسيراً لنعت الشعب الألباني الذي يسكن بلده كوسوفو بأنه من أصول ألبانية للتأكيد على أن هذا الإقليم إقليم صربي. علماً بأن ألبانيا كغيرها من دول البلقان كانت خاضعة للحكم العثماني، وأن البانيا تشمل جميع الأراضي التي يسكنها هذا الشعب في شطريه القائمين حالياً أو منذ مؤتمر لندن المذكور عام ١٩١٣ داخل حدود ألبانيا وفي إقليم كوسوفو.

يؤكد هذا أن الألبان أقدم شعوب البلقان، بل من أقدم شعوب أوروبا بأسرها. لأنهم من الأليريين الذين سكنوا ألبانيا قبل الرومان بعهد طويل، وحتى قبل الإغريق. وقد اكتشف اللغويون علاقة وثيقة بين لهجتي «الفيغ» الموجودة حالياً في شمال ألبانيا و «التوسك» المنطوق بها في الجنوب وبين اللغة الأليرية القديمة، وأثبتوا أنهما لا بد أن تكونا مشتقتين من أصل لغوي واحد. الأمر الذي يجعل الألبان من أقدم شعوب أوروبا التي صمدت في موطنها لتقلبات الزمان كالباسك في إسبانيا. وتشير بعض الدراسات إلى ظهور اسم «إليريا» في كتابات هوميروس وشكسبير.

ولكن الذي يميز ألبانيا على شعوب البلقان في التاريخ العثماني لهذا الحوض أن ألبانيا عدت جزءاً من الدولة العثمانية أوثق ارتباطاً بها من سائر الأقاليم الأخرى. حتى إن١٧صدراً أعظم أو وزيراً أول، وعدداً لا يحصى من القادة العسكريين وكبار الدولة العثمانية كانوا من الألبان بل إنهم أسهموا بدرجة كبيرة في التمرد أو الانقلاب الذي قاده الاتحاديون والذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني عام١٩٠٩.

وقد نجد في التحول الكامل تقريباً من قبل الألبان إلى الإسلام تفسيراً لهذه المعاملة الخاصة لهم من قبل العثمانيين، علماً بأن وصولهم إلى أرفع المناصب ليس جديداً في التاريخ الألباني، فخلال الحكم الروماني قبل ذلك بنحو ألف عام كان الكثير من كبار قادة الجيش الروماني ألباناً، كما أن عدداً من الألبان أصبحوا أباطرة في روما، ومنهم أورليان وبرولوبس.

هل يمكن القول إن الألبان دفعوا ثمن «عثمانيتهم» عام ١٩١٣ في أوروبا القديمة/الحديثة! ولكن «ماذنبهم» اليوم في أوروبا المعاصرة؟ أم إن التاريخ لايُنسى بدليل أن الحكم الذاتي لألبان كوسوڤو والذي يتم عبر المفاوضات مع السفاح المخادع ميلوسيفتش هو سقف المطالب الأوروبية! أو بعبارة أخرى: إن هذا السقف يأتي في هذا السياق التاريخي ليكرّس دور أوروبا في خلق المشكلة وفي العجز أو عدم الرغبة الصادقة في حلّها!

وإذا كانت أوروبا لا ترغب في استقلال الإقليم حتى لا ينضم إلى ألبانيا، وحتى لا يتحقق ما يسمى بألبانيا الكبرى لأسباب لم تعد خافية؛ فلماذا لا تكون كوسوفو الجمهورية الثالثة في الاتحاد اليوغوسلافي المشكل حالياً من صربيا والجبل الأسود. وهو الحل الذي يمكن أن يوافق عليه إبراهيم روغوفا الزعيم السياسي في كوسوفو، وجيش تحرير كوسوفو الذي سئم من الوعود ومن الألاعيب والأكاذيب الصربية والدولية، ولم يجد في غير السلاح وسيلة لانتزاع الاستقلال عن صربيا خصوصاً أمام هذه الفظائع والمجازر الصربية التي لا تؤكد فقط همجية الصرب فحسب، بل تؤكد المعنى الكامل للاستعمار في حكمهم لهذا الإقليم.

أما بشأن ما يتردد عن قيام حلف شمال الأطلسي بتدخل محدود ينفذه ما بين ١٠ و٢٣ ألف جندي في المنطقة الحدودية مع ألبانيا، فقد وصفه بعض المعلقين بأنه «إجراء خطير يدخل في مخططات الصرب لأن الغرض الأساس منه توفير ملاذ آمن للألبان. الأمر الذي سيؤدي إلى نزوح ألباني شامل نحوه بضغط شديد من الصرب.. وفي هذه الحال سيقسم إقليم كوسوفو نظرياً إلى منطقتين «كوسوفا» الغربية والجنوبية للألبان. بينما تبقى «ميتوخيا» في الوسط والشمال بيد الصرب»

وهل يمكن أن يكون هذا فحوى اتفاق أو تفاهم بين روسيا والأطلسي والصرب؟!

يبدو لنا أن التماس حل لمشكلة كوسوڤو خارج نطاق جيش تحرير كوسوڤا بعيد المنال كما دلت على ذلك حرب البوسنة. ويبدو أن هذا الجيش قد أخذ العبرة من هذه الحرب، فهو يرفض تراجع السياسيين أو تخاذلهم عن مطلب الاستقلال «لأن أي حل آخر لن يضع حداً حاسماً لمحاولات الصرب إنهاء الوجود السكاني الألباني في كوسوڤو» على حد قول مصدر قيادي في جيش تحرير كوسوڤو. كما يرفض استخدام الفروق الدينية والطائفية التي تحاول صربيا تسويقها في الغرب بوصفها حامية للمسيحية في وجه الوجود أو المد الإسلامي. بل يصر الجيش المذكور على «المنطلق القومي الألباني فقط» وإن كنا نلاحظ أن هذا الوجود القومي مرفوض كذلك لدى الصرب الذين يتقاطع عندهم القومي والديني أو العرقي والمذهبي في حربهم المسعورة في حوض البلقان. ولكن نجاح الألبان في كوسوڤو في عدم توقفهم عند المسألة الدينية كما جاء على لسان المسؤول الإعلامي في جيش تحرير كوسوڤو يعد خطوة إيجابية في صراعهم المرير مع الصرب. أما المسؤول الإعلامي المذكور فيدعى «ياكوب كراسنيجي» وهو مسيحي كاثوليكي قضى عشر سنوات في سجون الصرب لمشاركته في انتفاضة ألبان كوسوڤو عام ١٩٨١ وهو حالياً عضو القيادة العليا لجيش تحرير كوسوڤو الذي وصفه بأنه تطور بسرعة كبيرة بعد بداياته المتواضعة في العام الماضي «إذ أصبح لديه الآن ٣٠ ألف جندي نظامي يتمتعون بالانضباط العسكري والمواصفات الأخلاقية».

قلت: وهو مرشح للزيادة في كل يوم كما جاء في رسالة السيدة (أمل) التي قتل الصرب زوجها، واغتصبوا بنتيها.. ولا نامت أعين الجبناء... وأعني أولئك الذين خرجوا من التاريخ في بلاد العرب والمسلمين.

obeikandl.com